اللغة الاسبانية وقضايانا القومية

الدكتور حكمة علي الاوسي
قسم اللغة العربية

ما من أمة من الامم ولا فرد من الافراد احوج من الامة العربية والفرد العربى الى التعلق بالحكمة التى تجعل منطلق المعرفة الاول والاساس الضرورى الذى لابد منه للمعرفة الصحيحة هذه الجملة البسيطة « اعرف نفسك » •

وأول مستلزمات معرفة النفس على نطاق الشعوب ان تعرف الامة ذاتها الثقافية ووجدانها الحضارى • وأول خطوة فى هذا السبيل هى ان تعرف الامة ما اعطت للغير وما اخذت عنه •

وليس الاخذ عن الشعوب الاخرى بعيب ينبغى أن يصيب الخجل الشعب الذى يمارسه ، بل العكس هو الصحيح فان الاقتباس العلمي والثقافى عن الآخرين لا يمكن ان يستغنى عنه شعب من الشعوب وهو دليل التطور الخلاق والابتكار الاصيل ما دام الشعب الآخذ فى أخذه محافظا على شخصيته المميزة وهاضما لما يأخذ ومتمثلا اياه بحيث يجعله جزءا اساسيا من كيانه •

ولقد قال أحد كبار الأدباء الفرنسيين فى هذا المعنى ما مضمونه :

« ان الاسد ما هو الا عدة خراف مهضومة »

ولقد أخذ العرب الكثير عن الامم الاخرى ، ونهلوا من حضارات عريقة كان لها دور كبير فى تاريخ الحضارة الانسانية ، مثل الحضارة الهيلينية والبيزنطية والهندية والفارسية واليونانية • ولكنهم لم يخضعوا لتأثير هذه الحضارات خضوعاً يمسخ شخصيتهم ويذيب كيانهم الثقافي والفكري فى خضم ما درسوا من تراث الآخرين • بل عرفوا كيف يستخلصون من

تراث الامم الاخرى زبدته وجوهره وكيف يضيفون اليه من اصالتهم ، ما جعله عربى الطابع ، اسلامى الروح ثم قدموه الى الامم الاوربية ناضج الثمار شهي الطعم •

واذا كانت الدراسات المقارنة التى تجرى عن الثقافة العربية والفكر الاسلامى وعلاقتهما بالحضارات الاخرى يمكن لها أن توضح ما اخذنا عن الآخرين فان دراسة العلاقات الثقافية العربية الاسبانية تحدد لنا ما اعطينا نحن الى الآخرين فتبرز بذلك الجانب الفعال من شخصيتنا •

ولقد قرر الباحثون الاوربيون ، قبل غيرهم ، هذه الحقيقة عن « الحضارة العربية » فقد قال أحد كبار المستشرقين الاسبان وهو Francisco Codera « ان العرب لم يكونوا نقلة فقط للعلوم ، بل لقد زادوا فيها الشيء الكثير[1] • وقال فى موضوع اخر « ودون أن نحط من قيمة المدنية المسيحية ، فى العصور الوسطى ، نقرر بدون ادنى شك ، ان المسلمين ، فى المشرق والمغرب ، قد أمسكوا بقياد المعرفة فى كل فروع العلم ، منذ القرن الثامن حتى الثالث عشر الميلادى • وقد الفوا كتبا لايحصيها عد بلغة سُمِّيت وهى اجدر من اللغة اللاتينية بان تسمى لغة التفاهم بين العلماء »[2] •

وفى استطاعتنا أن نذكر الكثير من أقوال كبار الباحثين الاسبان الآخرين والاوربيين فى هذا المجال ، ولكننا لسنا فى معرض التفصيل فى هذا الموضوع • وكل ما نريد أن نقرره ، هنا ، أن التبادل الثقافي والعلمى بين الشعوب على الشكل الذى بيناه ، ليس معرَّةً تصِمُ أيا منها بالنقص او القصور فى هذا العصر الحديث ولا فيما غبر من العصور •

واننا حين نقول ان من الاسباب التى تجعل لدراسة اللغة الاسبانية اهمية بالغة بالنسبة للعرب هذا التأثير العميق الذى تركته الحضارة العربية فى اسبانيا وفى الاسبان جميعا ، فليس فى هذا مس بالشخصية الثقافية

الاسبانية التى استطاعت ان تستوعب ما تستوعب من الفكر العربى الاسلامى، فأضفت عليه طابعها القومى الخاص وتمثلته بشكل جعله جزءا طبيعيا من الكيان الاسبانى العام •

ان تتبع التأثيرات الثقافية والفكرية العربية فى الكيان الاسبانى على ضوء الدراسات العلمية الموضوعية لا يفيدنا فى تحديد فاعلية الشخصية العربية وقوتها الحضارية فحسب ، بل هو ذو فائدة لا تقل عن ذلك أهمية للاسبان انفسهم لما تتيحه هذه الدراسات من امكانيات لتحديد جذور الثقافة الاسبانية وابراز الطابع القومى الاسبانى الاصيل ومقدرته على امتصاص الثقافات الاخرى وتمثلها وتكوين مركب ثقافى جديد أنتشرت تأثيراته فى أوربا كلها وقدم للانسانية هذا الطابع الاسبانى الفريد الذى تتميز به اسبانيا اليوم •

وقبل أن افصل القول فى اهمية الاسبانية لدراسة تراثنا الحضارى العربى ، أود ان أوجز الكلام على نقطتين اخريين تضيفان على الاسبانية اهمية خاصة بالنسبة لنا نحن العرب :

الاولى اهميتها العالمية

والثانية اهميتها لقضايانا المعاصرة •

أما أهمية اللغة الاسبانية العالمية فتتجلى فى الحقائق التالية :

١ ـ من الناحية الثقافية :

للاسبانية تأثير كبير فى الادب العالمى عامة والاوربى منه خاصة ، وذلك بما قدمته للآداب العالمية من نماذج ادبية اصيلة أشهرها شخصية السيد (El Cid) ويظهر تأثيرها فى الادب الفرنسي فى رواية كورني (Le Cid) ودون جوان وتأثيرها في موليير ودون كيخوته وشخصية الصعلوك « لاثاريللبو » وقد ظهرت تأثيرات قصص الصعاليك الاسبانية فى الادب الاوربى بنشوء الادب الواقعى فيه •

ويتحدث الناقد الاسبانى الكبير Damaso Alonso عن اصالة الادب الاسبانى فى هذا المجال فيقول : « اسبانيا القرن الخامس عشر لم تدر ظهرها الى مفاهيم القرون الوسطى ، كما فعلت فرنسا ، بل هى استمرت على تقاليد العصور الوسيطة ، من غير أن تغمض عينيها عن تأثيرات العصر الذى كانت فيه • ان هذا لهو الاصالة العظمى لاسبانيا وللادب الاسبانى ، وانه لسرها العظيم ومفتاح قوتها وهمتها الصميم »(٣) •

ويعتبر الشعر الغنائى اثمن ما قدمته اسبانيا الى الادب الاوربى خاصة والى الادب العالمي عامة ويتجلى هذا الشعر فى الزجل والموشحات • أما عن اصول هذا اللون الغنائى الجميل فبين الباحثين خلاف فى ذلك • فبعض الباحثين الاسبان يؤكدون أنه الزجل والموشحة مما اعطته اسبانيا للعرب وللاوربين ، من فنون اصالتها • وبعضهم يرى أن الطابع العربى الرومانى دليل على امتزاج الثقافتين « العربية والاسبانية » ومن الباحثين من يرى أن الزجل والموشحات ان هما الا تطوير للشعر العربى المشرقى اقتضته الالحان الموسيقية التى استحدثت فى الاندلس بتأثير المغني زرياب وابتكاراته • وعلى كل حال فهذه مسألة لا تزال موضع درس وبحث ولم تُقل فيها الكلمة النهائية حتى الآن(٤) • وللاسبان مشاركة فى تنمية الثقافة الانسانية معترف بها دوليا وكمظهر بسيط لذلك نذكر الكتاب الاسبان الذين حصلوا على جائزة نوبل العالمية : ايجيگاري Echegaray

فى أوائل القرن العشرين وهو رياضى اسبانى وكاتب مسرحى كبير • خاثينتو بيناڤينتى Jacinto Benavente وهو كاتب مسرحى معاصر ودون خوان رامون خيمينث Juan Ramon Jiménez وهو من اعظم شعراء اللغة الاسبانية المحدثين ، ودون سانتياكو رامون اى كاخال Don Santiago Ramón Y Cajal توفى سنة ١٩٣٤ ، (جائزة نوبل فى الطب ـ كتب بحثا حول الجهاز العصبى) •

٢ ـ تأثير اسبانيا الفنى :

ويكفى فى هذا المجال أن نعرف أن عمالقة للرسم كبارا ظهروا بين الاسبان قديما وحديثا فعمت شهرتهم الآفاق واقاموا مدارس للرسم تتميز بالاصالة الاصيلة والابتكار الفذ ، أمثال گويـا Goya ڤيلاثكيث Velazquez والگريكـــو El Greco • ومن منا لم يسمع بعبقرية القرن العشرين فى الرسم المتمثلة فى پيكاسو وسلڤادور دالي ؟ •

٣ ـ التأثير الاسبانى الثقافى والسياسى :

لم تكن حملة الاستكشافات التى انطلقت من اسـبانيا الى امريكـا الشمالية والجنوبية مجرد غزو لمناطق جديدة من العالم تستغل ثرواتها بما يعود بالنفع والخير العميم على اسبانيا والاسبان المستكشفين ، بل كانت الى جانب هذا ، وسواء قصد المستكشفون اليه أم لم يقصدوا ، حملة قويـة لاشاعة الحضارة الحديثة فى المناطق المستكشفة ونشر الثقافة والعلم هناك عن طريق فرض السيادة الاسبانية ، ونشر اللغة الاسبانية وهذا ما يعرف بالاسبانية بـ La Hispanidad ويقـول المـؤرخ الاسـبانى المعاصـر اميريكو كاسترو Américo Castro في هـذا الموضـوع : « ان التوسـع الاسبانى فى العالم ان هو امتداد للفتح العربى فى مُثُلِه واغراضه فـى نشر الثقافة والمُثُل الحضّارية العليا • ان أسبانيا لم تكن غازية فقط بل كانت كالعرب تحضر المناطق التى تفتحها وتشيع فيها الثقافة والعلم » •

ويتجلى هذا فى تأسيس اسبانيا للـكثير من الجامعات فـى امريكـا الجنوبية مثل جامعة ليمـا Lima فى پيرو Perù وجامعة المكسـيك • وقد اسست اسبانيا المطابع فى جنوب امريكـا فى الـوقت الذى لم تكـن المطبعة معروفة فى كثير من دول أوربا •

وهكذا انتشرت الثقافة الاسبانية فى كل المناطق التـى وقعت تحت السيطرة الاسبانية من الامريكتين وغلب الطابع الاسبانى هناك فصـارت

اسبانيا ولغتها الام الروحية للناطقين بالاسبانية فى كل مكان • وبانتشار الاسبانية فى هذه الارجاء الواسعة ولاهميتها الثقافية والحضارية فلقد اصبحت الاسبانية اليوم لغة من خمس لغات معترف بها رسميا فى الهيئات الدولية هى : الانكليزية والفرنسية والروسية والصينية والاسبانية •

ان اللغة الاسبانية لها المقام الثالث بين الالفين والخمسمائة لغة المستعملة حاليا فى العالم • ويبلغ عدد الناطقين بالاسبانية اليوم حوالى مائتى مليون نسمة موزعين على اكثر من عشرين دولة(٥) ، وهذا يكوّن رصيدا انسانيا ضخما يزيد من أهمية هذه اللغة عند الدول التى تدرك الاهمية القصوى المترتبة على كسب ود الشعوب الناطقة بهذه اللغة الثرية •

اللغة الاسبانية وأهميتها لقضايانا القومية المعاصرة :

ان اسبانيا هى واحدة من اهم الدول التى لم تعترف باسرائيل حتى الآن وهى دولة من دولتين فقط فى اوربا الغربية لم تفعلا ذلك ، وهذا بحد ذاته ، مكسب له اهميته الخاصة ، لاخطر قضية من قضايانا القومية هى قضية فلسطين •

فاذا اضفنا الى هذا الموقف الرسمى للحكومة الاسبانية الحالية ، ما يشيع بين الشعب الاسبانى من روح الود والتعاطف مع العرب ، والشعور بالارتباط ، تأريخيا ، بالعنصر العربى وثقافته ، استطعنا أن نتصور الامكانيات التى لاحدود لها للاستفادة من هذا الواقع الموضوعى لصالح القضايا القومية الكبرى التى يجابهنا فيها التحدى العنيف ، لحلها وبما يتفق ومصالحنا العليا •

وينبغى أن نعلم ايضا أن رصيدا هائلا من المشاعر الطيبة ينتظرنا للتعاطف فى أمريكا اللاتينية التى يبلغ عدد دولها المستقلة عشرين دولة وهذا يعنى عشرين صوتا فى هيئة الامم المتحدة يمكننا ان نكسب معظمها ،

ان لم يكن كلها ، الى جانبنا اذا ما عرفنا كيف ننتفع بمشاعر الود التى تتطلع الينا هناك .

والى جانب هذا كله فان من الحقائق التى يجهلها معظمنا أن الجاليات العربية فى امريكا اللاتينية تشكل قوة شعبية لها شأن كبير ، ولست اعرف على وجه التحديد والتأكيد ارقاما عن هذه الجاليات ، ولكنى علمت عن طريق احد الصحفيين الارجنتينيين أن فى الارجنتين وحدها أكثر من اربعمائة الف عائلة عربية يشتغل افرادها فى مجالات الحياة المختلفة وأن الكثير منهم يحتل مركزا مرموقا فى الدولة والمجتمع .

فاذا افترضنا ان الحد الادنى الذى تتكون منه كل عائلة هو ثلاثة افراد : الاب والام وأبن واحد على الاقل ، فان هذا الرقم يرتفع الى اكثر من مليون عربى فى الارجنتين وحدها . واذا سرنا مع افتراضنا فى حدوده الدنيا ، لامكننا ان نقول : اذا كان لكل عائلة من هذه العوائل العربية الاربعمائة ، هناك ، صديق واحد من اهل البلد ، على الاقل ، نستطيع ان نشرح له قضايانا ونقنعه بحقنا فيها ، لكان لنا سند شعبى هائل فى ذلك الجزء المهم من العالم ، يعزز موقفنا فى الهيئات الدولية ويناصرنا وناصره بالحق على ظلم المعتدين .

وكمثل على الشعور الودى الطيب الذى يشيع بين المثقفين خاصة ، من شباب امريكا اللاتينية ، ان بعض من تعرفت عليهم منهم يعتقد اعتقادا قلبيا أن الثقافة اللاتينية الامريكية ان هى الا حفيدة للثقافة العربية وأن امها الاسبانية ابنة العربية .

فهل يصح أن نتجاهل مشاعر كهذه ؟ أم أن الخير كل الخير لنا فى أن ننميها ونقويها ؟ وهل من سبيل اقوم واضمن ، لذلك من الاهتمام بالاسبانية وتخريج المتخصصين فيها وتكليفهم بمهمات ثقافية هناك ، وتهيئة المتطلبات التى تقتضيها دراستهم للمجتمع اللاتينى الذى يزاولون مهماتهم

فيه توثيقا لاواصر الود وعُرى الارتباط التأريخى بيننا وبينهم ؟

اننا نعرف أن الدول التى يهمها كسب ود شعب ما لا تفتأ تخصص لذلك الآلاف من الباونات أو الدولارات تصرفها على اشكال مختلفة : على الاذاعة بلغة ذلك الشعب والمجلات الدعائية بلغته وتحاول أن تؤثر على بعض صحفه بالمال ووسائل الاغراء الاخرى • كل هذا لماذا ؟ لتستطيع أن تكوّن بين افراده من يؤمن بمنطقها وينظر الى مصلحته القومية بمنظارها ، ويعطف على قضاياها ، لانها عن طريق هذه الوسائل تقنعه بعدالتها ولو كانت باطلة ، وبنزاهة مقاصدها ولو كانت خبيثة •

ونحن العرب نستطيع ان نكسب ود الشعوب المتكلمة بالاسبانية بسهولة اكثر وبجهد أقل لو وجهنا اهتمامنا الى شيء من هذا • وذلك لما قدمنا من ارتباطات تأريخية وثقافية وروحية تربط بيننا وبين المتكلمين بالاسبانية •

اهميتها لدراسة تراثنا الحضارى :

نظر الباحثون الاسبان الى الاثر الثقافى العربى فى اسبانيا نظرتين مختلفتين : فرأى فريق أن التقدم الذى عمّ اسبانيا خلال القرون الوسطى لم يكن للعرب فيه من فضل قليل ولا كثير • وهم يرون أن ما كان فى اسبانيا ، قبل الفتح العربى ، من حصيلة حضارية رومانية وأغريقية كانت هى السبب فى الازدهار الثقافى الذى شاع فى اسبانيا خلال العصور الوسطى • وان هذه الحصيلة الحضارية كانت ستصل حتما الى ما وصلت اليه بعد الفتح العربى ، من رقى فكرى وحضارى ، حتى لو لم يقدر للعرب ان يفتحوها •

ويبالغ هؤلاء فى تقدير القيم الثقافية التى كانت فى اسبانيا قبل الفتح العربى ويعزون الى الحكام فضلا حضاريا لا يعترف لهم به اكثر المؤرخين المحدثين الذين ينظرون الى الامر نظرا مجردا من التعصب القومى •

أما الفريق الثانى فيرى ان للعرب الفضل الكبير والحاسم فى ما شاع فى اسبانيا خلال الحكم العربى وبعده من تقدم فى نواحى المعرفة المختلفة ، وهم يقولون انه لم يؤثر عن القوط انهم قاموا باى عمل فيه نفع عام ، وانهم كانوا على العكس من ذلك اعداءً لكل حضارة بسبب تعصبهم المقيت ضد كل العناصر الاخرى التى كانت تتألف منها شبه الجزيرة[٦] . حتى انهم قضوا على البقية الباقية من الآثار الحضارية التى يرجع عهدها الى زمن الرومان .

وفى الحقيقة لقد اهتم بعض رجال الكنيسة الكاثوليكية فى اسبانيا القوطية بالثقافة وبالعلوم التى كانت معروفة فى عصرهم ، ولعل المع الشخصيات الفكرية فى هذا العصر هو القديس ايسيدورو الاشبيلى (٥٦٠ – ٦٢٦ م) وهو من الايبيريين الرومان ، أى من السكان الاصليين فى شبه جزيرة إيبيريا الا أن تأثير هؤلاء الرجال كان محدودا ولم يكن عميقا كالتأثير العربى .

وعندما تمكن الاسبان خلال حربهم الطويلة مع العرب من احتلال طليطلة عام ٤٧٨ هـ – ١٠٨٥ م وتقرر بذلك مصير الجزيرة ، اخذ ملوك قشتالة يعملون على نقل كنوز الثقافة الاسلامية الى لغاتهم ليتمكنوا من رفع مستوى الثقافة بين شعبهم . ولهذا اسست فى طليلة « مدرسة المترجمين » المشهورة التى اشتغلت بنقل الثقافة العربية الاسلامية بما فيها من العلوم الاغريقية وما اضافه اليها العرب من شروح وتعليقات ، الى المدارس الاوربية[٧] .

وقد اصبحت طليطلة بفضل هذه المدرسة ، المركز الذى انتشرت منه الثقافة العربية فى اسبانيا وباقى نواحى أوربا . وتمت فى اكناف هذه المدرسة ترجمة عيون المؤلفات العربية فى الرياضيات والفلك والطب

والكيمياء والطبيعة والتأريخ الطبيعى وما وراء الطبيعة وعلم النفس والمنطق، والسياسة •

والواقع ان التأثير العربى الاسلامى فى الشعب الاسبانى كان قد سبق حركة الترجمة هذه بامد طويل • فلقد كان المستوى الفكرى بين العرب الاندلسيين ، منذ اواسط القرن الثالث الهجرى ـ التاسع الميلادى على درجة من الرقى يثير الدهشة والاعجاب • ولقد سجل لنا التأريخ اربعة مظاهر لهذا الرقى الفكرى تدل كل منها على أصالة فريدة فى التفكير العلمى ، منذ ذلك العهد المبكر من تأريخ الحضارة العربية فى الاندلس وسنكتفى بالاشارة الى كل مظهر من هذه المظاهر دون تفصيل فى بيانها ، بالنظر لضيق المجال • اما المظهر الاول فهو :

شخصية عباس بن فرناس (المتوفى سنة ٢٧٤ هـ ـ ٨٨٧ م) فلقد كان ابن فرناس شخصية نادرة وعبقرية فذة وكانت له ابتكارات عديدة منها استنباطه لطريقة استطاع بها أن يستخرج الزجاج من الحجارة • وصنع نموذجا آليا للسماء تبدو فيه النجوم والقمر فاذا ما ادار زرا معينا بدأ الليل يتبدد ظلامه وبدا الفجر ثم اشرقت الشمس ، واذا ادار زرا آخر تلبدت السماء بالغيوم واخذ المطر بالهطول[٨] • والى جانب هذا كله • صنع الة لضبط الوقت دعاها (الميقاته) •

ولكن الاعجب من هذا كله ، والحقيقة التى تبدو اغرب من الخيال هو طيرانه فى الجو • فلقد تمكن ، على ما يبدو ، من اكتشاف بعض القوانين الاساسية فى الطيران ، فكسا جسمه بالريش وعمل له جناحين ربطهما الى ذراعيه وصعد على مرتفع عال والقى بنفسه فطار فى الجو مسافة بعيدة[٩] ، وكان بذلك ، أول انسان يطير فى الهواء •

والمظهر الثانى

صاحب القبلة : هو ابو عبيدة مسلم بن احمد بن ابى عبيدة البلنسى (توفى سنة ٢٩٥ هـ) المعروف بصاحب القبلة لاسرافه الشديد فى صلاته • وكان بالاضافة الى علمه بالفقه والحديث معتنيا بعلم الحساب متضلعا بعلوم الفلك عالما بحركات الكواكب واحكامها • وكان الى ذلك كله جغرافيا ذا آراء أصيلة فى تقرير كروية الارض ودورانها فى فلك لها مرسوم ، وان دورانها هذا تنتج عنه الفصول المختلفة ونحن نعرف القليل عن آرائه هذه بفضل قصيدة لاحمد بن عبد ربه (٢٤٠ ـ ٣٢٨) اتهمه فيها بشذوذه عن الجماعة وبانه يذهب مذهب المرجئه والمعتزلة • نذكر منها هذه الابيات[١٠] •

أبا عبيدة والمسؤل عن خبر ... يحكيه الاسُوار الذي سألا (؟)
أبيت الا شذوذا عن جماعتنا ... ولم يُصب رأي من ارجى ولا اعتزلا
وقلت ان جميع الخلق فى فلك ... بهِم محيط وفيهم يقسم الاجلا
والارض كروية حف السماء بها ... فوقا وتحتا وصارت نقطة مثلا
صيف الجنوب شتاء للشمال بها ... قد صار بينهما هذا وذا دولا
فان كانون فى صنعا وقرطبة ... بردا وايلول يذكى فيهما الشعلا
هذا الدليل ولا قول غررت به ... من القوانين يجلى القول والعملا
كما استمر ابن موسى فى غوايته ... فوعّر السهل حتى خلته جبلا
أبلغ معاوية المصغي لقولهما ... انى كفرت بما قالا وما فعلا

وواضح ان ابا عبيدة هذا لم يكن وحيدا فى اعتقاده بكروية الارض (فهل هناك علاقة بين هذه لآراء وتلك التى دفعت كولومبس لاكتشاف امريكا ؟) •

والمظهر الثالث هو بقي بن مخلد (٢٠١ ـ ٢٧٦ هـ) فقد بلغ من تمكنه من علمه ومن اصالته انه انشأ لنفسه مذهبا خاصا فلم يتبع المالكيين ولا الشافعيين ، وكان هذان المذهبان منتشرين فى الاندلس وهذا دليل

قوى على انطلاق الفكر العربى خلال هذا العصر ، وعلى ثورته على التقليد والاتبـــاع[١١] .

والمظهر الرابع هو مقدم بن معافى القبرى الضرير : (عاش بين سنتى ٢٢٥-٢٩٩ هـ) فقد ابتكر هذا الاعمى نمطا من الشعر جديدا على الاساليب الشعرية العربية ذلك هو الموشح .

وللموشح اهمية عالية ذلك انه من الثابت بين الباحثين انه الاساس الذى يقوم عليه الشعر الغنائى الاوربى الحديث . اما موضع الخلاف بينهم فهو ما يلى : هل الموشح تطوير للشعر العربى المشرقى ام هو تقليد لنمط من الاغانى الشعبية الاسبانية التى كانت شائعة فـى ذلك العصـر ؟ ان هـذا الموضوع من المجالات التى يمكن ان يأتى فيها المتخصصون من العـــرب بجديد فى الدراسات المقارنة الاسبانية ـ العربية[١٢] .

وبهذه الاصالة وبهذا المستوى الفكرى المبدع انبهر الشباب الاسبان الذين كانوا يعيشون بين العرب فاقبلوا على دراسة العربية وآدابها وبرعوا فيها بشكل جعل بعضهم يفوق العرب فى نظم الاشعار وحتى كـاد عنصـر المستعربين (وهم الاسبان الذين كانوا يعيشون بـين العـرب) ان يتلاشى ويختفى فى العنصر العربى . وهذه الحقيقة التأريخية واضحة من الحسرات التى اطلقها آلبرو القرطبى Alvaro والتي صـور فيهـا شبان النصـارى من اهل بلده متضلعين فى لغة العرب وشعرهم ، فلنسمع الى صيحاته التى ما زال التاريخ يرددها ، يقول : «ان اخواني فى الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم ، ويقبلون على دراسة مذاهب اهـل الدين والفلاسفة المسلمين ، لا ليردوا عليها وينقضوها ، وانما لكى يكتسبوا من ذلك اسلوبا عربيا جميلا صحيحا . واين تجد الآن واحدا ، من غير رجال الدين ، يقرأ الشروح اللاتينية التى كتبت على الاناجيل المقدسة؟ ومن ، سوى رجال الدين ، يعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الانبياء والرسل ؟

يا للحسرة ! ان الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم الا لغة العرب وآدابها ، ويؤمنون بها ويقبلون عليهم فى نهم • وهم ينفقون اموالا طائلة فى جميع كتبها ، ويصرحون فى كل مكان بان هذه الآداب حقيقة بالاعجاب • فاذا حدثتهم عن الكتب النصرانية اجابوك فى ازدراء بانها غير جديرة بأن يصرفوا اليها انتباههم • يا للالم ! لقد أُنسيَ النصارى حتى لغتَهم ، فلا تكاد تجد بين الالف منهم واحدا يستطيع ان يكتب الى صاحب له كتابا سليما من الخطأ ، فاما عن الكتابة فى لغة العرب فانك واجد فيهم عددا عظيما يجيدونها فى اسلوب منمق ، بل هم ينظمون من الشعر العربى ما يفوق شعر العرب انفسهم فنا وجمالا »(١٣) •

وعندما دعا المستشرق الاسباني الكبير فرانشيسكو كوديرا الى ضرورة عناية الاسبان بالعربية لاهمية دراسة اللغة العربية بالنسبة الى اسبانيا ، فى البحث الذى القاه فى جامعة سرقطه سنة ١٨٧٠ م • بعنوان « اهمية دراسة اللغة العربية بالنسبة لاسبانيا ، عامة ، وبالنسبة للمولودين فى مملكة اركون القديمة ، خاصة » ، بيّنَ أن من اهم الاسباب التى تدعو الى ذلك ان للغة العربية غاية الاهمية فى دراسة تاريخ العصور الوسطى بكل مظاهره ، وفى دراسة علم اللغة المقان • واوضح أن دراسة التاريخ الاسبانى لا يمكن ان تكون تامة ما لم يُدْرَس تاريخ العرب الاندلسيين ذلك لان تاريخ هؤلاء انما هو تاريخ الاسبان انفسهم •

وعندما ندعو نحن الآن الى اهمية دراسة اللغة الاسبانية والعناية بها نجد أن نفس الاسباب التى ذكرها المستشرق الاسبانى الكبير لا تزال لها اهميتها البالغة فى دراسة التأريخ العربى فى الاندلس فلقد تركت القرون الثمانية التى عاشها العرب فى اسبانيا تأثيرات عميقة فى الشخصية الاسبانية ، بخاصة ، وفى التفكير الأوربي بعامة • وكان للبيئة الاندلسية التى كانت جديدة على العرب تأثيرات مختلفة ومتفاوتة على التفكير العربى بدت مظاهرها

واضحة فى كثير من تقاليده وفنونه التعبيرية • وما اختراع الزجل والموشحة الاندلسيين الا مظهر واحد من تلك المظاهر •

وفى تقاليد الاسبان ومواضعاتهم الاجتماعية وغنائهم الشعبى طعم عربى لا يخطئه المذاق • ولا ينتظر الا متخصصين يجيدون اللغتين ويستوعبون الثقافتين ليكونوا مؤهلين للقيام بابحاث تخصصية مقارنة فى المجالات الفولكلورية والاجتماعية والادبية والتأريخية تحدد العلاقة بين الثقافتين وتعيّن مدى تأثير كل منهما بالاخرى •

وللباحثين الاسبان آراء منصفة للعرب ، معترفة بفضلهم الثقافى لا على الثقافة الاسبانية وحدها بل على التراث الثقافى الانساني كله حتى أن اقطاب مدرسة الاستشراق الاسبانية فى القرن الماضى دعوا الى تبنى الثقافة العربية الاندلسية ودافعوا عنها امام المتجنبين عليها من باحثى أوربا باعتبارها ثقافة اسبانية اصيلة كتبت بالعربية • وكانت ابحاثهم فى ذلك رائعة البيان ، قوية البرهان • ومن المفيد أن نذكر ، هنا ، بعض مؤلفات اولئك المستشرقين الاسبان وجهودهم العلمية الرائعة فى الكشف عن روعة التراث العربى الاسلامى فى الاندلس ، فان فى هذا محفزا قويا يدفعنا لدراسة هذه اللغة الجميلة ، ان لم يكن لتذوق ادبها الاصيل فللاطلاع على ما بذله ابناؤها البررة من جهود مضنية فى سبيل الكشف عن ثمار الفكر العربى فى اسبانيا معتبرين اياه فكرا اسبانيا اصيلا •

من هؤلاء المستشرقين الافاضل : فرانشيسكو كوديرا Francisco Codera فى دراساته العميقة عن الفكر العربى فى كتابه :

سقوط المرابطين فى اسبانيا

طبع فى سرقطه سنة ١٨٩٩

وكتابه الثانى فى نفس السلسلة بعنوان :

دراسات نقدية فى التاريخ العـربى الاسبانى
صدر فى جزأين فى السلسلة المسماة :
مجموعة من الدراسات العربية
مدريد ١٩١٧

والمستشرق ميگيل آسين بلاثيوس M. Asin Palacios وله من الابحاث :

١ ـ الغزالى وتأثيره فى اسبانيا الاسلامية •

٢ ـ الغزالى وتأثيره فى اسبانيا المسيحية •

٣ ـ قصة المعراج النبوى فى الكوميديا الآلهية ، مدريد ١٩١٩ •

والمستشرق خوليان ريبيرا Julian Ribera فى كتابيه :

١ ـ الموسيقى العربية وتأثيرها فى الموسيقى الاسبانية •

٢ ـ مجموعة مقالات وابحاث عن التراث العربى فى اسبانيا •

والمستشرق انخل كونثالث بالينثيا A. Conzalez Palencia نذكـــر من كتبـه •

١ ـ تاريخ الفكر الاندلسي • نقله الى العربية د • حسين مؤنس ـ القاهرة ١٩٥٥ •

٢ ـ تاريخ اسبانيا الاسلامية • برشلونة ١٩٢٥ وطبعة ثانية ١٩٢٩ •

٣ ـ تأثير المدنية العربية • مدريد ١٩٣١ •

على أن لبعض الباحثين الآخرين من الاسبان آراء غير موضوعية معادية للعرب مُحطة من ثقافتهم منكرة كل فضل لهم • فان لم تكن لنا مدرسة من البـــاحثين العـــرب المتخصصين بالثقافـــة الاســـبانية بمختلف فروعهـا وشـتى مظاهرهـا ، فـكيف نأمـل أن نقـدّر للمنصفين منهم آراءهم فينا ونبرز تلك الآراء امام العالم عن طريق اعـادة نشرهـا وترجمتها الى اللغات المهمة ، وكيف يتسنى لنـا ان نُفنّد آراء المتجنين علينا بالباطل ونُظهِرَ خطلهم الفكرى ومجانبتهم للموضوعية فى البحث ؟

واذا كان العلماء الاسبان قد ادركوا أهمية اللغة العربية لدراسة تأريخهم القومى وتراثهم الفكرى فاقاموا مدرسة اسبانية خاصة للاستشراق ووجهوا جهودهم العلمية لدراسة التراث الحضارى العربى ليتعرفوا فيه على جذورهم وتراثهم الحضارى وأصول فكرهم القومى ، فما اجدرنا بأن ننشىء مدرسة عربية للدراسات العربية الاسبانية المقارنة لنستكشف من انفسنا وقابلياتنا واصالتنا جوانب لا تزال خافية علينا ؟ وهل يمكن ان يتم لنا هذا دون اهتمام منا بالاسبانية ؟ •

---

١ ـ F. Codera, **Estudios Criticos de historia árabe espanola.** Madrid, 1917, VIII, P. 14.

٢ ـ Ibid, P. 3.

٣ ـ J. M. de Agra **Cadarso, Historia de la literatura espanola,** 2a ed., Madrid, 1957, P. 125.

٤ ـ انظر فى هذا بحثا لنا بعنوان « آراء فى الموشح » فى مجلة المجمع العلمى العراقى المجلد الثامن عشر ١٩٦٩ ، وانظر ، بشكل خاص ، ص ٣ و ٤ و ١١ـ١٢ من مستلة البحث المذكور •

٥ ـ انظر : مقالا لنا فى مجلة « الاقلام » الجزء العاشر ، السنة الاولى حزيران ١٩٦٥ بعنوان « من مظاهر التأثير العربى فى الثقافة الاسبانية » ص ٢٣ ومصادره ، و « مفردات اسبانية عربية الاصل » جمعها وقدم لها د • بتول العلاف و د • حكمة علي الاوسي ـ بغداد ١٩٦٢ ص ١ •

٦ ـ راجع فى هذا د • حسين مؤنس : فجر الاندلس (القاهرة ١٩٥٩) ص ٢٤ ـ ٢٥ •

٧ ـ انظر : جو نثالث بالينثيا : تاريخ الفكر الاندلسي • ترجمة د • حسين مؤنس ـ القاهرة ١٩٥٥ ص ٢٧ و ٥٣٦ـ٥٣٧ •

٨ ـ المقرى : نفح الطيب (ط • احسان عباس) ٣/٣٧٤ وابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ـ القاهرة ١٩٥٣ ، ١/٣٣٣ و د • بتول العلاف : « حكيم الاندلس » فى مجلة « الاقلام » ج (٣) ١٩٦٦ ص ٥٣ـ٥٩ ، وانظر :

Levi - Provençal, **Espana Musulmana....**, Madrid, 1957, t. IV, P. 174, t. V, P. 185.

Ibid , **La civilización arabe en Espana,.** Buenos Aires, 1953, P. 73.

A. Gonzalez Palencia, **El Islam y Occidente, PP. 48 - 9.**

Ibid , **Influencia de la Civilización árabe.** Madrid, 1981, PP. 33-34.

٩ ـ ابن سعيد : المغرب ١/٣٣٣ ونفح الطيب ٣/٣٧٤ ٠

١٠ـ صاعد الاندلسي : طبقات الامم (مطبعة محمد محمد مطر بمصر ـ بدون تاريخ) ص ٧٣ـ٧٤ ٠

١١ـ انظر عنه : نفح الطيب ٣/٢٧٤ وابن عذارى : البيان المغرب (ط ٠ مكتبة صادر ـ بيروت ١٩٤٨ ـ ١٩٥٠) ٢/١٦٣ ـ ١٦٤ والذهبى : سير اعلام النبلاء (ذخائر العرب ـ ١٩ ـ) ١/٣ و١٥ و٤٤ و٤٦ و٢٧٦ و٢٨٨ و٢٩١ و٣٦٢ و ٣/٢٩٩ و٣٤٧ و٥/٢٠٠ و٢٩٩ والعبر فى خبر من غبر (الكويت ١٩٦١) ٢/٥٢ و ٥٦ والمشتبه فى الرجال (القاهرة ١٩٦٢) ص ١١٦ وابن حيان : المقتبس (القسم الثالث ـ ١٩٣٧) ص ٨ و ٣٣ و ٣٨ والحميدى : جذو المقتبس (تحقيق محمد بن تاويت) ص ١٦٧ ـ ١٦٨ والسيوطى طبقات المفسرين (ليدن) رقم (٢٥) و د ٠ حسين مؤنس : شيوخ العصر (القاهرة ١٩٦٥) ص ٤٥ ـ ٤٦ ٠

١٢ـ انظر بحثنا المشار اليه فى الهامش (٤) اعلاه ومصادره ٠

١٣ـ جونثالث بالينثيا : تاريخ الفكر الاندلسى ص ٤٨٥ـ٤٨٦ وانظر : كراتشكوفسكى دراسات فى تاريخ الادب العربى (موسكو ١٩٦٥) ص ٥٩ ، ودوزى : ملوك الطوائف ونظرات فى تاريخ الاسلام (ترجمة : كامل كيلانى) ـ القاهرة ١٩٣٣ هامش ص ٨ و

J. Ribera, **Disertaciones y opúsculos.** Madrid, 1928, t.I, P. 28.